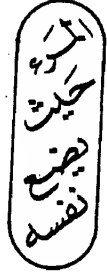


محمد إقبال

فيلسوف الذات و شاعر العشق

د. عبد الكريم اليافي

حكمة بليغة من أوابد حكم العرب • ندرك بها كيف نشعر بنصيب من الرفعة والسمو حين نتدارس حياة عظيم من العظماء ، وكيف نكرم أنفسنا حين نكرم ذكراه • ومع الشعور بالتكريم والسمو والرفعة نرى الدنيا مرة جديدة أكرم وأجمل مما نظن اذ جادت بأولئك العظماء وهيأت لنا معاشة ذكراهم وتأمل أعمالهم وأفكارهم • وهكذا يسعدنا أن نتحدث عن الذكرى التاسعة بعد المائة لميلاد شاعر الشرق محمد اقبال.



ولد محمد اقبال سنة ١٨٧٧ في سيلكوت لأسرة كشميرية الأصل برهمية المحدث ، أسلمت قبل عدة قرون في زمن السلطان زين الدين الياس بودشاه • ثم هاجرت الى البنجاب ذات الطبيعة الفاتنة • رجا أبواه التقيان الشيخ نور محمد والسيدة امام بيبي أن يكون لهذا الوليد شأن • فعكفا على تنشئته وتربيته وتعليمه كأفضل ما يكون التعليم والتربية والتنشئة • وفي كل مرحلة من مراحل النمو كان الطفل الناشئ واليافع اللامع يتجاوز في الأصالة والتفكير والعمق والبيان كل ما كان يُقدَّر له •

درس في كلية سيلكوت على عالم مشهور كان يشار اليه بالبنان في الأدبين الفارسي والعربي هو شمس العلماء مولانا مير حسن • ثم انتقل بعدها الى كلية الحكومة بمدينة لاهور حاضرة البنجاب ، فبرز بين أقرانه ، وحاز جوائز

متعددة • ولمح أستاذة المستشرق السرتوماس أرندل مخايل نبوغه • فلم يكد يتخرج حتى عهد اليه في تدريس الفلسفة واللغة الانكليزية بالكلية نفسها • ثم ها هو ذا يسافر في تباشير القرن العشرين سنة ١٩٠٥ الى أوربة شغفاً بالتحصيل العلمي العالي ورغبة في الاطلاع على مظاهر حضارة الغرب • فهو يُجاز في الفلسفة من جامعة كمبردج • ثم ينتقل الى ألمانيا فتمنحه جامعة مونخ شهادة الدكتوراة في الفلسفة • ثم يرجع الى انكلترا فيحصل على شهادة المحاماة من جامعة لندن. وفي خلال ذلك كله يلقي محاضرات تتلامح فيها بوادر فلسفته العالية • ولم تكن تلك الشهادات كنهاشياً بالنسبة الى ينبوع العبقرية الثرى الأصيل في قلب الشاب • فهو قد قطف تلك الشهادات كما يقطف المتنزه في طريقه بعض الأزاهير تدل على مروره بتلك المعالم •

رجع اقبال من أوربة عام ١٩٠٨ فلقى استقبالا حافلا وعرضت عليه مناصب حكومية فأعرض عنها • انه نزيه عفيف النفس يقنع بالكفاف ويرضى بالميسور ، كما عبر عن ذلك في بيت من ديوانه « رسالة المشرق » ، قال :

« أنا لا أتحمل دلال الملوك ولا جرح الاحسان ، يا من انخدعت بالطمع ! انظر الى همة هذا الفقير • »

وانما انصرف الى الفكر والأدب مع ممارسة المحاماة ، فصنف ديوانين باللغة الفارسية هما « أسرار خودي » و « رموز بيخودي » فنالا اعجاباً عاماً • وترجم الأول المستشرق الشهير نيكلسن الى الانكليزية ، فذاع صيت المؤلف في أوربة وأمريكة • ثم يتوالى الانتاج الفكري وتتلاحق ترجماته • ولعل من أعظم أعماله ديوانه المعروف « بياض مشرق » أي « رسالة المشرق » كتبه مساجلة للشاعر الألماني الكبير غوتي الذي ألف « الديوان الشرقي للمؤلف الغربي » • وترجم المستشرق الانكليزي أربري ديوان اقبال هذا ترجمة جميلة الى الانكليزية بعنوان « زنايق سيناء » •

وقد حملة أصدقائه على ترشيح نفسه لعضوية المجلس التشريعي في اقليم بنجاب سنة ١٩٢٦ فانتخب عضواً وسعى سعيًا حثيثاً لتخفيف الضرائب عن كاهل الفلاح الهندي ولاجراء اصلاحات اجتماعية متعددة • ثم انتخب عام ١٩٣١

عضواً في مجلس المائدة المستديرة المنعقد بلندن لاصلاح دستور الهند . وفي رجوعه
زار القدس وأوجس مطامع الصهيونية الماكرة كما زار مصر . ثم زار أفغانستان
ليشارك فكرياً في تأسيس جامعة كابل . وقام بوجه كثيرة من النشاط الاجتماعي
والثقافي والسياسي . وفي غضون ذلك كله لم يفتأ ذلك الصوت العبقري يعلو
ويسمو ويقوى حتى تجاوب في الآفاق العالمية دانيها وقاصيها . ولكن صاحبه
كان يريد أن يبلغه أيضاً مسامع العرب . ذلكم أن عناصر ذلك الصوت ان كانت في
الظاهر هندية فان جرسها الممتاز وروح نبراتها عريبان . يقول في ختام قصيدة
طويلة رائعة بعنوان شكوى :

أسمعهمو يا رب ما ألهمتنى	وأعد اليهم يقظة الايمان
وأذقهم الخمر القديمة انها	عين اليقين وكوثر الرضوان
أنا أعجمي الدن لكن خمرتي	صنع الحجاز وكرمها الفينان
ان كان لي نغم الهنود ولحنهم	لكن هذا الصوت من عدنان

لقد سكر اقبال من محبة العرب ودينهم ولكنه كان متفتح النفس تجاه
الأمم جميعها . فلقد كتب فيما كتب هذه الأبيات في ديوانه « أرمغان حجاز » ينوه
فيها بقدر ايطالية حين مر بها : « انظروا الى هذه الأمة تتشبث بأموج البحر
الأبيض المتوسط الزرقاء . انها تغني الآن كالقيثارة وترتفع شامخة كشجرة
السرو . »

وقد تُرجم ديوانه « جاويد نامه » وهو من أنفس الدواوين الى الايطالية
بعنوان « أشعار سماوية » . وذلك أن اقبالا يرى به شاعر ايطالية « دانتى »
في ملهاته المشهورة . وفي عنوان الديوان تورية بابنه جاويد .

لقد قلّ أن يجتمع لأنسان ما اجتمع لاقبال من مواهب فطرية وعبقرية عالية
وثقافة واسعة . كان عالماً ضرب بسهم وافر في ميدان الثقافة الانسانية الزاخرة،
مطلعاً على تاريخ الفكر الفلسفي الشرقي ولا سيما الاسلامي وخاصة التصوف ،
وكذلك على تاريخ الفكر الغربي واعياً للمكاسب الفكر الحديث حتى آخر المكاسب
العلمية الفكرية . ونحن الذين نفخر بأنادر سنا ما راج في العصر الحاضر من
عناصر نظرية المعرفة وفلسفة الفيزياء الحديثة وقد بدلت وجه العالم ولا سيما في
نهاية الربع الأول من هذا القرن نجد آثاراً لها واشارات اليها في كتابات اقبال. ونحن

نعلم أن اقبالا توفي سنة ١٩٣٨ أي أنه لم يغفل عن معالم الفكر الحديثه آيان
نجمت وأنتى برزت .

وكان الى ذلك شاعراً من أكبر شعراء عصره . بل كان أكبرهم وأوسعهم
أفقاً وأعمقهم شعوراً وأشدّهم سمواً . وإذا كان الشعراء يكتبون أشعارهم بلغة
واحدة فقد أتيح له أن يكتب أشعاره بالفارسية والأردية وأن يكتب الى ذلك
بحوثاً فلسفية واجتماعية وسياسية بالانكليزية فضلاً عن معرفته لغات أخرى
كالألمانية والفرنسية والمأمة بالعربية والسنسكريتية .

وهكذا تضافرت الثقافة الواسعة والموهبة الشعرية النادرة والفلسفة
المتأملة الواعية والإيمان العميق الدقيق في تكوين هذا المفكر الفيلسوف المصلح
الشاعر العظيم .

انه في الشعر والفلسفة الفارسيين يلحق بالشعراء الأفذاذ العالميين ولا سيما
بجلال الدين الرومي الذي كان اقبال معجباً به - ومن منا لا يعجب بمولانا
جلال الدين - وان كان يختلف عنهم باختلاف العصر وصروف المجتمع وفي
شؤون أخرى عدة ولا سيما في توكيده مكانة العمل والحاحه على فكرة الذات
وتفردا وهو في هذا الشأن يقترب من الشيخ محيي الدين بن عربي كما يختلف
عنهم جميعاً في الاستفادة من الفكر الحديث ومن مكاسبه .

عاش اقبال في عهد شهد المدّ الأعظم لطغيان القوى الاستعمارية ولا سيما
الانكليز ، كما شهد ازاء هذا الطغيان غفلة الشرق عامة والمسلمين خاصة
والعرب بوجه أخص ورأى تفرق هذه الأمم والشعوب جميعاً . لقد نهض
عظماء في الشرق وبين المسلمين وفي أكناف العرب أهابوا بالنوأم أن يستيقظوا
وبالغافلين أن يتنبهوا وبالمتفرقين أن يتجمعوا وبالتواكلين أن يجدوا ويعملوا .
ولكن هيهات لصيحات قوية مخلصه أن توقظ ملايين الرقود كالأموات من دون
تهيئة أسس فكرية ومادية مكيئة ورصينة تجاه حديد الغرب
ورصاصه ولؤمه ودخانهِ . لقد عرف العرب الاصلاح السلفي في محمد بن
عبد الوهاب ، والثورة الواعية المتنقلة في السيد جمال الدين الأفغاني ، والعلم
الديني المستنير المتين في الشيخ محمد عبده ، والتنديد بالاستبداد والتفرق
في عبد الرحمن الكواكبي ، والوطنية الشابة المتأججة في مصطفى كامل ،

والاخلاص الغيور المصلح في خير الدين التونسي وأمثالهم ، كما عرفت الهند بعض زعماء الاصلاح أمثال السيد أحمد خان والسيد أمير علي (كلمة السيد هنا لقب كما هي للأفغاني) فكان أمثال هذين المصلحين ارهاصاً من بعض وجوه النظر بالفيلسوف الشاعر العظيم محمد اقبال .

راع اقبالا تخلف الشرق الميرير تجاه تقدم الغرب المادي كما راعه سيطرة هذا الغرب الذي رآه بلا قلب على مئات الشعوب وملايين الأفراد فنذر فكره وقلبه وقلمه للاصلاح وللنضال وللتنديد بالغزو والاستغلال والاستلاب .

وجد الغرب مفعماً بالنشاط زاخراً بالحركة . ولكنه مجرد من المبادئ الخلقية الأصيلة ، فقير بالحب والايمان ، تكبله قيود المنطق بل تنهشه كالأفاعي . لقد سخر الطبيعة لأغراضه ، ولكنه أخفق في محو البؤس الانساني ، بل زاد هذا البؤس في آسية وافريقية وبين شعوب أمريكا واسترالية الأصليين . أما مأساة الشرق فهي النزوع نحو المظهر الخارجي الخلاب الذي يظهر به الغرب لا نحو قدراته العلمية المبدعة . لقد عانى اقبال ما وجده في الشرق والغرب من انقسام فهو يقول :

« في الغرب العقل مصدر الحياة ،

وفي الشرق الحب قوام الحياة ،

انما يدرك العقل الحقائق بالحب

فيثبت مكاسب الحب .

انهضوا وأقيموا دعائم عالم جديد

بالتوفيق بين الحب والعقل »

وينظر اقبال حوله فلا يكاد يدع مشكلة الا أولاها قبساً من فكره وأضاءها بسنا من بيانه .

آذاه استغلال الاقطاعي للفلاح فسعى لتخفيف الضرائب عنه كما أشرنا قبلاً الى ذلك ، وآذاه استغلال الرأسمالي للعامل أيا كان فناداه منبهاً على مكانته في الانتاج مقترنة بوهن حالته :

« أيها العامل الذي ابتلعه الرأسمالي المحتال ! لقد غبرت حالتك قروناً على
الفصون الواهية • يدك هي الخالقة للثروة ومع ذلك تمتد كأنها متسولة
للحصول على الأجر • • • لقد أطعمك ساحر الموت أوراق الحشيش فظننتها أيها
الغافل سكر النبات • لقد سيطر عليك الرأسمالي بالحيل الماكرة ، فغلبت أيها
العامل على أمرك بكل سذاجة • تيقظ لأن أسلوب محفل العالم تبدد • وقد ابتدأ
شأنك الآن في الشرق وفي الغرب • »

كذلك آذاه وآده طغيان بعض الحكومات على رعاياها وهو الذي أشاد بالحرية
وعرف مكانتها العليا في تربية الشعوب فهو يقول :

« الى اليوم ما يزال الانسان شرفريسة لصيد الحكام • وانها لقيامه
كبرى أن يبقى الانسان فريسة الانسان • »

ويقول أيضاً : « لم يخلق هذا الهيكل الترابي في أول فطرته من تراب الجحيم
ولا من تبر الرضوان ولكن الحياة تخلق فيه بأسلوب العمل جحيماً أو جنة • »

أحب اقبال العرب وفُتِنَ بلفتهم العظيمة ، ولا غرو فهي لغة القرآن ، لغة
السماء زيادة على كونها لغتهم • وهو قد شحذ بأفكاره وأشعاره همم الهنود
وأجج بحماسة عزائم الفرس وأطرب بنغماته الكواكب والأفلاك حتى وصلت
الى السماء السابعة . ولكنه تمنى لو تصل أصوات نايه الرخيم العذب القوي الى
مسامع العرب وتبلغ فحواها قلوبهم فيجمعوا شملهم ويعودوا أمة واحدة بعد
أن صاروا أجزاءً متفرقة وأبائهم ، ويستأنفوا سبيل مجدهم الصاعد • لقد ألمه تفرقهم
وتصدعهم فهو يتلهف على جمع شملهم ويناشدهم :

كل شعب قام يبغي نهضة وأرى بنيانكم منقسماً
في قديم الدهر كنتم أمة لهف نفسي كيف صرتم أمماً

لقد تقطعت أوصال البلاد العربية وتوزعها الغزاة بعيد الحرب العالمية
الأولى • وقع بعضها في مخالب الانتداب وبعضها في براثن الاستعمار فأصاب
اقبالاً صدمة عنيفة ولكنه أبى أن يتشائم أو يستسلم : « ان سقط جبل

من المآسي على العرب فلا حاجة الى العويل • ان الفجر لا يطل الا بعد فناء
آلاف النجوم • »

هذا وكل فيلسوف حق ومصلح كنفني لا بد أن يفعم قلبه الأمل • يقول اقبال :

« أنا بشر زنا بق الربيع
يتوقد ضرام الحب في قلبي
لا تأنف مني اليوم ان وجدتني وحيداً
سوف تتوالى قوافل الورد تترى من بعدي »

الورد يتلو الزنبق

حتى في أنقاض الدمار كان اقبال يلوح شعاع أمل لحياة جديدة أكثر حركة
وأشد عزمًا وأبهى اشراقاً من الماضي •

شهر عن اقبال أنه شاعر الاسلام وفيلسوفه الكبير الحديث • ولكنه عندنا
شاعر العشق وفيلسوف الذات • انه فيلسوف الانسان وشاعر المحبة الانسانية.
يتجه الى الانسان ليجلو عن ذاته الصدا والخمود ويبحث فيه روح المحبة وعزيمة
العشق • ونحن يهمنا أن نبين ولو بايجاز السبيل الفكري الذي يسلكه في الاصلاح.

ان هذا السبيل هو النفوذ الى نفس المرء وشحن ما فيها من ذاتية مفردة ودفعها
في ميدان الأمل والعمل والاقدام والعزة والرقى •

من المعلوم أن سقراط منذ القديم قد اتخذ في الفلسفة شعاراً وهو « اعرف
نفسك بنفسك • » ولما جاء الصوفية المسلمون تجاوز أحدهم وهو يحيى بن معاذ
الرازي هذا القول فنوه أن « من عرف نفسه فقد عرف ربه. » ونحن نفهم من هذا
القول أن سر النجاة واكسير النجاح في غمار الحياة أن يسلك المرء السبيل الذي
به يحقق ما يحسن من قيم رفيعة ومجد مؤثّل فيستطيع أن يبني ولو حجراً ما في
صرح الحضارة الانسانية بتعاضده هو وغيره من الناس حتى يتم الرقي ويطرد
التقدم • ذلك أن الطريق الى الله بعدد نفوس بني آدم كما أشار الى ذلك صوفي
آخر. فالطريق القويم الخاص بكل امرئ هو الذي يستطيع فيه أن يتقن عمله

ويحقق جانباً من المعالي ، والا كان ضائعاً في ميدان الحياة مسلوباً وهو لا يعي أن هذا الميدان هو درب الخلود .

القضية عند اقبال ليست مجرد معرفة فاترة تكشف دون أن تحفز ، وتجلو دون أن تدفع . ذلك أن النفس انما هي في ذاتها نفس بقواها الدافعة الحافزة الخلاقة . أنيتها حركة دائبة وجهاد متصل وتوتر ناشط وكفاح مستمر وشعلة متوثبة النور . كل ما يحول دون توهجها سفساف قبيح مرذول . وكل ما يقويها ويزيد في نمائها ويزكيها فهو سام مستحب . قد يتوهم الانسان الوقت خطأ ممدوداً يقيسه بالليل والنهار فيقع في شباك الوقت . والحق أن الوقت هو الحياة ، هو الأمل والعمل والسير والدأب . ولا خير في حياة تمضي في صمت وسكون واستخذاء . ان الذات لتقوى بتوليد المقاصد وايجاد الرغبات وتجديد الأمانى . والغايات الرفيعة الجميلة تستهوي أصحابها وتبعث فيهم معين القوة ورسيس العشق . هنالك شأن اسمه الخلود وهو يتهيأ في أحضان هذه الحياة التي نحيها . يقول اقبال : « غص في البحر وحارب الأمواج فان خلود الحياة في الكفاح . السكون محال في الأرض . انصرام الليل مؤذن بانبلاج الصباح . وآخر عهد البراعم أول عمر الزهر . كل شيء هنا يتغير ويتبدل . »

ويقول أيضاً :

« لقد دفنوا في التراب البذور فلم تَفنَ في لحدها الهامد
ولم تنطفئ ناراها في الحياة على طول مرقدتها البارد

هذا التوقد الحافز هو العشق فهو الذي يبعث الرغبات ويشعل في القلوب الجمرات . وهو الذي يغذي الذات ويولدها سمو المقاصد وتحقيق الغايات . العشق هذا معناه طلبك الشيء لتجعله جزءاً من نفسك . وأسمى صور العشق ابداع القيم . العشق متصل بالذات وبفرديتها . ان العشق يجعل الطالب فريداً والمطلوب فريداً أيضاً . انك ان طلبت أو عشقت مقصداً وتمنيته فان غيره لا يرضيك ولا يقنعك ولا ينقع غلتك ولا يقوم مقامه في ارضائك . العشق هو الطاقة التي تحطم القيود وتتجاوز السدود وتتغلب على الحدود . والذات العاشقة تتجاوز الزمان والمكان . انها قلم القضاء ومصدق القدر .

وهكذا يتصل في فكر اقبال العشق المتقدم بالعلم المنير . العلم يستدعي
السؤالات ويدرك الصفات . والعشق يقتحم العقبات ويشهد الذات ويولد
المعجزات ويرفع الانسان فوق النجوم النيرات .

ولا يتم هذا دون مراحل ولا بغير شروط . ففي البدء تنشأ في الذات
المقاصد ، وتتولد الرغبات ، وتبرعم الآمال . ثم تدخل الذات ميدان النضال
ومضمار الجد والكفاح . وفي غمرة الكفاح والجد والنضال تتسلح بالمبادئ
السامية وتهتدي بالايمان العميق فتضبط شهواتها ، وتشذب نزاعاتها وتهذب
طبائعها ، وتوحد اتجاهها . أوليس الرسول العظيم قال لأصحابه حين قدم من غزاة :
« رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر . قالوا : وما الجهاد الأكبر ؟
قال : جهاد النفس . »

وهنا لا بد من أن نقف فينة عند هذا الأثر وان كان في تخريجه بعض العلل .
نوضح فحواه ايضاحاً ينسجم مع ما أراده اقبال . وعندئذ نؤكد بالاستطراد المناسب
قصد الفيلسوف الشاعر دون أن نخرج من دائرة أفكاره .

يتضمن لفظ الجهاد اعتماد القوة في تغيير الواقع : واقع النفوس الباطن
وواقع الحياة الخارجية . ولما كانت الأديان ثورة على الفساد واحلالاً للنظام
والوحدة لزم أن تتضمن تعاليمها اعتماد القوة في ذلك . لم تكن المسيحية كلها
سلاماً . فلقد جاء في انجيل متى قول السيد المسيح : « لا تظنوا أنني جئت
لألقي على الأرض سلاماً . لم آت لألقي سلاماً لكن سيفاً . » ان الانسان قد يضطر
الى حمل السلاح دفعا للظلم وتحقيقاً للعدل وحفاظاً على الكرامة الانسانية .
وقد نشأ في العصر الحاضر التفريق بين الحرب العادلة والحرب الغاشمة . فالحرب
والعدة والسلاح أمور خارجية لقهر المعتدين والمفسدين . وكذلك هي رمز لقهر
الانسان عدوه الكامن في نفسه وهو التششت والهوى والنزعات الفاسدة حتى
يحل فيها النظام والعدالة والوحدة . فنهاية الحربين الخارجية والباطنة
السلام . وانما اشتق الاسلام من السلام وهو غاية النفس والمجتمع . ويبدو حرب
الأعداء أمراً يسيراً بالنسبة الى حرب شتات النفوس وتوزعها . لأنه متى
توحدت النفوس وساورها النظام والعدالة سهل التغلب على العدو الخارجي .

ولهذا جاز استعمال لفظ الجهاد في الميدانين واعتبار جهاد النفس الجهاد الأكبر كما جاز اعتماد السلاح رمزاً للموعظة الحسنة والكلم الطيب والحجة البالغة . وقد اشتق العرب من مادة فصل: الفیصل للسيف والمفصل بكسر الميم للسان وقالوا : قول فصل وفصل الخطاب وحكم فیصل . وجاء في أساس البلاغة: رب كلام بالمفصل أشد من كلامٍ بالمقصل « وقالوا : سيف مقصل أي قطاع ، ولسان مقصل أي حديد ذرب . ويؤيد صحة الرمز والاستعارة هذين عامة ما جاء أيضاً في رؤيا القديس يوحنا : «وفي يده اليمنى سبعة كواكب ومن فيه يخرج سيف صارم ذو حدين » فالسيف الخارج من الفم لا معنى له الا الكلم ووصفه ذا حدين اشارة الى قوة البناء وقوة التدمير فيه .

وعندنا أن اقبالا وعى كل الوعي مكانة البيان فنذر نفسه للشعر والفلسفة يدمر الفاسد ويبني الصحيح في نفس الانسان متوجهاً الى كيانه الذاتي منسجماً مع مبدأ جهاد النفس .

هذا ومن أهم أساليب البيان وأشدّها تأثيراً الشعر وضرب الأمثال والتخييل والالتيان بقصص قصيرة معبرة . انظروا كيف يهاجم البغي والقوة الغاشمة وتقتيل النفوس بغير حق جشعاً وطمعاً في سرقة أموال الغير وسرقة أراضيهم . فقد قص قصة الشيخ ميانمير أحد كبار الصوفية اذ زاره أحد سلاطين الهند . وكان السلطان مولعاً بالحرب والتدمير . وبينما السلطان يلتبس من الشيخ أن يدعو له بالنصر تقدم أحد المريدين من الشيخ بدرهم قائلاً : كسبت هذا بكدي وأرجو من سيدنا الشيخ أن يقبله مني . فقال الشيخ للمريد : أعط هذا الدرهم السلطان فهو أفقر الفقراء وأحرص الناس على الاستجداء كم أخرج بلاداً وقتل عباداً ليشبع !

واذا جرى كل امرئ على أصول ضبط النفس ومكافحة الأهواء تضافرت الجهود وتلاقت الأعمال وتحول التشتت الى التماسق والتفرق الى التوافق ، وصار التجزؤ والانقسام الى الوحدة والالتئام ، وسهل حل جميع العقد المنيعة المطلب والصعبة المرام . ذلك هو ملتقى الكمال للعلم والقوة وتلك نقطة الاتصال بين الفكر والعمل والعاطفة والعقل . عندئذ تنهياً للانسان خلافة الأرض .

وهنا نجد فيلسوف الذات يرفع قدر الانسان وينوه بعظمته الفكرية ونشأته
الروحية ، ويوقع عليه المسؤولية الفردية والاجتماعية في تنظيم هذا العالم وذلك
بالحرية الواعية الهادية والذاتية المتقدمة العادلة والسمو المبدع :

أما أنا فلست أدري أين يعلو نظري
أنا تراب غير أن الشمس دون جوهري

الانسان مسؤول في الحياة • هو صانع ذاته ومجتمعه بالعمل والبناء
والنضال والاتقان ، وهو مدمرها ومدمر مجتمعه بالتواكل والتكاسل والاهمال •
انه يكافح اذا عرف ذاته وجوهره ليسموفوق كل من العالم الذي صنعه الانسان
والعالم الذي خلقه الله • يتخيل اقبال حواراً ممتعاً بين الله والانسان ليظهر سنا
من السر الالهي في العالم • يخاطب الله الانسان : « أنا خلقت العالم من الماء
والصلصال كما خلقتك • وأنت خلقت الحواجز الجغرافية لايران وتركية والتتر
وغیرها • جعلت أنا الفاكهة تنبت من التراب واخترعت أنت السيف والقوس
والنشاب • أهويت أنت على براعم الحديقة بالفأس • حبست أنت الطيور
الصداحة في الأقفاص • »

ويجب الانسان : رباه

الليل أنت خلقتَه	وأنا الذي اخترع السراج
والطين أنت صنعتَه	فجعلت منه أنا الزجاج
والبيد والغابات صنعك	والجبال الشاهقات
منها جعلت أنا الحقائق	والجنان الزاهرات
وأنا الذي من صخرها	صقل المرايا اللامعات
وجعلت من سم الأفا	عي الرقش أنواع العلاج

أوليس الانسان جلاء هذا العالم وانسان عينه على حد تعبير الصوفي الكبير
محيي الدين بن عربي ؟! أوليس ان أحسن التصرف يستحق الخلافة حين حمل
الأمانة ؟!

ان الأصالة ليست الانقطاع عن الأصل ولا التنكب عن التراث . يأبى ذلك اللفظ العربي كما يأباه جذر مقابله الأجنبي Originalité ، Originality انها نسخ يتخلق من الأصل ويندفع بالعشق في الذات ويعلو بالفكر ويسمو بالنضال . ولعل شخصية اقبال مثال حي على هذه الأصالة الرائعة العالية .

ذلك أنه لم يتخلّ عن مضامين التراث التي وعها ولا رفض قيم الحضارة الحديثة التي اطلع عليها وانما كان وفياً لمطالب الحياة المستجدة، أميناً على خزان التراث الرفيعة . واذا لهج بعض الفلاسفات الفنية الحديثة بفكرة « الالتزام » فانا لنجد فنه من أوله الى آخره ملتزماً بحب الانسان والسعي لاسعاده أيا كان . ينوه برفعته ، ويشيد بسموه ، ويوجهه الى أنبل الغايات وأعلى المقاصد . وهو في أساليب تعبيره عن ذلك لا يقطع الصلة بين تشوف الحاضر وصور الماضي . هل أذكر عنوانات كتبه : رسالة المشرق، زبور العجم ، تحفة الحجاز ، جناح جبريل ، الرسالة الخالدة ؟؟ أو أذكر بعض القطع الشعرية الوجدانية الرقيقة مثل صدر الشاعر ، الحكمة والشعر ، العالم بلا قلب ، ميلاد آدم ، خمرة الشوق ، النهر ، قيمة الخطر ، الوجود والعدم ، مآدبة العشق ، كلمة الحب !

لأورد ترجمة هذه القطعة الصغيرة « كلمة الحب » ذات الصور المحسوسة المتسلسلة يروي بعضها الخبر عن بعض ، وكأنها لمعان البرق . يقول اقبال :

« عندي خبر هذه الكلمة . هي جذوة القلب . هي سر وليست بسر . أنا أنبئك بمن سمعها وآين سمعها . لقد سرقتها الندى من السماء وأوحى بها الى الوردة ، وسمعها البلبل من الوردة ، وحملها نسيم الصبا من البلبل » .

كل قصائد اقبال جديرة بالعرض السليم والشرح الدقيق، ولكني أتجاوزها لأنوه بتعبير أصيل غدا متداولا بين شعراء الشرق قديماً والغرب حديثاً ، وهو تشبيه النفس الانسانية في تشوقها أنوار المعالي بالفراشة تطوف بالسراج المتقد المتلألئ . فكما أن الفراشة تطوف حول النور المتوهج ثم ترمي بنفسها فيه لتحترق وتضيء ، كذلك النفس في سعيها نحو المعالي تحترق مأخوذة بسنا المثل العليا .

ثمة أمثلة متعددة على ذلك عند سعدي الشيرازي وحافظ الشيرازي وفريد الدين العطار . وقد تناقل الباحثون التصوير البارع الذي صورته قديماً أحمد الغزالي أخو أبي حامد الغزالي صاحب الاحياء . وهو أن الفراشة تطوف عاشقة للنور . ولكن لهيب الشمعة ينعطف نحوها فيصطلمها ويتغذى بها . وهكذا يصبح العاشق قوتاً لمعشوقه وليس المعشوق قوتاً لعاشقه . وقد جاء الشاعر الألماني المشهور «غوتي» فاهتدى بأساليب العرب والفرس واطلع على اللغتين العربية والفارسية ، وسمى إحدى مجموعاته الشعرية « الديوان الشرقي للمؤلف الغربي » . كتب في هذا الديوان قصيدة بعنوان « الشوق السعيد » اتخذ فيها الفراشة رمزاً لمن يعيش النور ويحترق به ليتحول انساناً أي انسان لا مجرد طيف يغمره الظلام .

ولما جاء اقبال عبّر أوجز تعبير عن حكاية الفراشة المحترقة فهو يصرح بأنها تحترق لتصبح هي نفسها شعلة مضيئة كالشمعة نفسها . هذا هو الوصال الحقيقي . ولحظة الاحتراق أفضل من العيش أعواماً دونه :

أحب احتراقي بنار اشتياقي ولا أرتضي عيشة الغاملين
فناء الفراشة في النار يعلو حياة الجبان طوال السنين

ويقول أيضاً :

معنى احتراق القلب في الاخلاص أن القلب يصبح كله أنوارا
ولقد تحولت الفراشة شعلة لما أن احترقت فصارت نارا

هذا الاحتراق هو احتراق الحب ، الحب المسكر المصطلم ، حب الانسان لأخيه الانسان حتى لا يكون في الأرض ظلم ولا استغلال ولا طغيان .

ان الانسان امكانية مرمية في الكون كما يقول بعض الوجوديين . لنقل مع اقبال : ذات " مرمية في الوجود تلتقي بمزاياها وخصوصيتها بخصوصيات الذوات الأخرى ومزاياهم . تتلاقى هذه الذوات ليسند بعضها بعضاً وتتضامن في معراج الرقي والتقدم فتسمو وترتفع جميعاً وهكذا يكون سر السعادة الخفي واكسيرها السرمدى في تلاقي هذه الذوات وتضامنها ومودة بعضها لبعض وهكذا يستبين معنى هذين البيتين لاقبال :

لم ألق في هذا الوجود سعادة كمودة الانسان للانسان
لما سكرت بخمرها القدسي لم أحتج الى تلك التي في الحان

لقد اعتاد الناس متى أعجتهم حكمة أو قول بليغ أن يكتبوه بأحلى خط
ويصنعوا له اطاراً منقوشاً بماء الذهب . ولما تعذر لديّ الذهب استبدلت به اطاراً
من الشعر والأدب لكي أبرز فيه حكمة اقبال في هذين البيتين، حكمة الاسلام والعرب
فقلت في الختام :

واهاً لاقبال سمت غاياته	لما تأمل رفعة الانسان
الذات ، يا للذات في آرائه	قبس "علي" من علا الرحمن
لو أدرك الأحياء رفعة شأنها	ما كان من خسف ولا طغيان
كالليزر الوقاد ذاتك فاتجه	بالذات نحو المجد والعرفان
فاذا تضافرت الذوات تناولت	ما تبغيه من علا وأماني
الودّ رابطة الشعوب لو انّه	متحقق عاش الوري بأمان
ولما تنافرت القلوب وكافحت	سلب الحقوق وسرقة الأوطان
اقبال قد ناديت ! هل سمع النداء	ظلمى الحروب وطفمة العدوان
صنّت السلام لكل قوم ذاتهم	متممين حقائق العمران
يا للنداء تصوغه متميزاً	متسلسلا من منهل الايمان
أصفى وأعذب ماسمعت وماسرى	يوماً من الألحان في الأذان
هذا الاطار صنعته بحشاشتي	وبسهد أجفاني ووقد جناني :
« لم ألق في هذا الوجود سعادة	كمودة الانسان للانسان
لما سكرت بخمرها القدسي لم	أحتج الى تلك التي في الحان »
	د . عبد الكريم اليافي

★ ★ ★